بَيْنَ الحَجِّ وَيَوْمِ القِيَامَةِوشيء من منافع الحج

١٤٣٥/١١/٢٤

الخطبة الأولى

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له،ومن يضلل فلا هادي له،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم ، أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما

أما بعد

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلْحَجِّ ارْتِبَاطٌ كَبِيرٌ بِيَوْمِ القِيَامَةِ، مِنْ حَيْثُ ضَخَامَةُ الأَعْمَالِ، وَشِدَّةُ الزِّحَامِ، وَكَثْرَةُ الجَمْعِ؛ حَتَّى إِنَّ السُّورَةَ المسَمَّاةَ بِسُورَةِ الحَجِّ، قَدْ تَضَمَّنَتْ خَبَرَ بِنَاءِ البَيْتِ، وَأَذَانِ الخَلِيلِ بِالحَجِّ، وَذِكْرَ الضَّحَايَا وَالهَدَايَا، وَأَعْمَالَ القُلُوبِ فِي المَنَاسِكِ. هَذِهِ السُّورَةُ قَدِ افْتُتِحَتْ بِمَشَاهِدِ القِيَامَةِ؛ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ).

إِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ الحَجَّ وَجَدَهُ مُذَكِّرًا بِيَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَالحَاجُّ مُسَافِرٌ سَفَرًا مَخُوفًا، لَا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ فِي سَفَرِهِ، وَلَا فِي أَدَاءِ مَنَاسِكِهِ؛ وَلِذَا تَأَكَّدَ فِي حَقِّهِ أَنْ يُؤَدِّيَ الحُقُوقَ الَّتِي عَلَيْهِ، وَأَنْ يَكْتُبَ وَصِيَّتَهُ، وَالإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا فِي سَفَرٍ، وَالمخَاطِرُ تُحِيطُ بِهِ، وَالمَنَايَا تَتَخَطَّفُهُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ بَعْضُهَا أَصَابَهُ غَيْرُهَا، وَنَحْنُ نَرَى كَثْرَةَ مَوْتِ الفَجْأَةِ فِي النَّاسِ!

وَبِالإِحْرَامِ يَتَجَرَّدُ الحَاجُّ مِنْ ثِيَابِهِ، وَيَلْبَسُ الإِزَارَ وَالرِّدَاءَ؛ فَيَتْرُكُ ثِيَابَ الزِّينَةِ وَالطِّيبِ، وَيُمْسِكُ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ، وَهَذَا يُذَكِّرُهُ بِالمَوْتِ وَالكَفَنِ، وَتَرْكِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَالوَحْدَةِ فِي القَبْرِ، فَلاَ رَفِيقَ لَهُ فِيهِ سِوَى عَمَلِهِ؛ فَإِمَّا عَمَلٌ صَالِحٌ يُؤْنِسُهُ وَيُسْعِدُهُ، وَإِمَّا عَمَلٌ سَيِّءٌ يُزْعِجُهُ وَيُعَذِّبُهُ، وَيَتَذَكَّرُ الحَاجُّ وَهُوَ فِي هَذَهِ الحَالِ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ).

وَالحَجُّ مِنَ العِبَادَاتِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا التَّنَقُّلاتُ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالمَنَاسِكِ، بَلْ لَا عِبَادَةَ مِنَ الْعِبَادَاتِ مِثْلُ الحَجِّ فِي كَثْرَةِ التَّنَقُّلِ؛ فَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمِنْ عَمَلٍ إِلَى آخَرَ.

انْتِقَالٌ مِنَ الميقَاتِ إِلَى الْحَرَمِ، وَمِنَ الْحَرَمِ إِلَى مِنًى ثُمَّ إِلَى عَرَفَةَ، ثُمَّ العَوْدَةِ إِلَى مُزْدَلِفَةَ فَمِنًى فَالحَرَمِ.

وَانْتِقَالٌ فِي الْأَعْمَالِ؛ مِنَ الإِحْرَامِ إِلَى الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، ثُمَّ المبِيتِ بِمِنًى، وَالوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، وَالمبِيتِ بِمُزْدَلِفَةَ، وَرَمْيِ الجِمَارِ، وَذَبْحِ الهَدْيِ وَالإِحْلَالِ، ثُمَّ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ، فَالْمَبِيتِ بِمِنًى وَرَمْيِ الجِمَارِ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ، فَوَدَاعِ البَيْتِ.

أَيَّامٌ قَلَائِلُ، مُزْدَحِمَةٌ بِالأَعْمَالِ، سِمَتُهَا البَارِزَةُ كَثْرَةُ التَّنَقُّلَاتِ، وَعَدَمُ الاسْتِقْرَارِ، حَتَّى إِنَّ أَيَّامَ الحَجِّ الخَمْسَةِ لِمَنْ تَعَجَّلَ أَوِ السِّتَّةِ لِمَنْ تَأَخَّرَ كَأَنَّهَا أَشْهُرٌ، وَلَيْسَتْ أَيَّامًا مَعْدُودَةً.

يَرَى الحَاجُّ -وَهُوَ يَتَنَقَّلُ فِي المشَاعِرِ لِأَدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَإِظْهَارِ الشَّعَائِرِ- مِئَاتِ الْأُلُوفِ يَسِيرُونَ مَعَهُ، وَأُلُوفٌ أُخْرَى قَدْ سَبَقَتْهُ، وَأُلُوفٌ أُخْرَى تَأْتِي بَعْدَهُ، فِي حَالٍ مِنَ التَّنَقُّلِ وَالازْدِحَامِ تُحَرِّكُ الْقُلُوبَ رَهْبَةً مِمَّا يُخْشَى حُدُوثُهُ، وَرَغْبَةً فِي إِكْمَالِ النُّسُكِ.

وَهَذَا يُذَكِّرُ بِمَا يَكُونُ مِنْ تَنَقُّلَاتٍ كُبْرَى يَوْمَ القِيَامَةِ فِي يَوْمٍ وُصِفَ بِأَنَّهُ كَأَلْفَ سَنَةٍ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ ذَلِكَ جَاءَ فِي سُورَةِ الحَجِّ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، وَوُصِفَ فِي سُورَةِ المعَارِجِ بِأَنَّهُ كَخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

إِنَّ تَنَقُّلَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ تَشْمَلُ تَنَقُّلَاتِ المكَانِ وَالأَحْوَالِ؛ فَمِنْ بَعْثِ القُبُورِ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَدُنُوِّ الشَّمْسِ مِنْ رُؤُوسِ الخَلْقِ، وَشِدَّةِ الزِّحَامِ، وَكَثْرَةِ العَرَقِ، وَاشْتِدَادِ الكَرْبِ، وَشَفَاعَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَهْلِ المَوْقِفِ، ثُمَّ الحِسَابِ، فَعَرْضِ الصُّحُفِ، وَوَزْنِ الأَشْخَاصِ وَالصُّحُفِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمُرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَنَقُّلَاتٍ، إِلَى أَنْ يَدْخُلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ!

وَاخْتَارَ اللهُ تَعَالَى لِأَدَاءِ المَنَاسِكِ بُقْعَةً هِيَ مِنْ أَشَدِّ بِقَاعِ الأَرْضِ حَرَارَةً، وَهَذَا يُذَكِّرُ الحُجَّاجَ بِحَرِّ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَقُرْبِ الشَّمْسِ مِنْ رُؤُوسِ الخَلْقِ، وَغَزَارَةِ العَرَقِ فِيهِ.

وَلَكِنْ رَغْمَ طُولِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَشِدَّةِ الحِسَابِ فِيهِ، وَكَثْرَةِ أَحْوَالِهِ وَانْتِقَالِ النَّاسِ مِنْ مَرْحَلَةٍ إِلَى أُخْرَى؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُحِسُّونَ بِطُولِهِ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَظِلُّونَ بِظِلِّ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ! قَدْ يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى حِسَابَهُمْ، وَيَمَّنَ كِتَابَهُمْ، وَثَقَّلَ مِيزَانَهُمْ؛ فَيَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِمْ كَنِصْفِ نَهَارٍ فَقَطْ، فَيَقِيلُونَ فِي الجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ يُسْرَ الْحِسَابِ عَلَيْهِمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)، بِخِلَافِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ الَّذِينَ يُعَسَّرُ عَلَيْهِمُ الْحِسَابُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)، وَقَالَ تَعَالَى: (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ).

وَفِي أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ يُلَاحَظُ الافْتِرَاقُ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُعِينُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَدَاءِ النُّسُكِ بِيُسْرٍ وَخُشُوعٍ وَلَذَّةٍ، حَتَّى تَنْتَهِيَ أَيَّامُ الحَجِّ وَلَمَّا يَشْعُرْ بِهَا، وَيَجِدَ لَذَّتَهَا وَحَلَاوَتَهَا فِي الْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَالتَّقَلُّبِ فِي أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ، وَمَنْهُمْ مَنْ تَمْضِي عَلَيْهِ أَيَّامُ المَنَاسِكِ وَهُوَ فِي جِدَالٍ وَشِقَاقٍ وَخِصَامٍ، لَمْ يَسْتَشْعِرْ حُرْمَةَ الزَّمَانِ وَالمكَانِ، وَلَا عَظَمَةَ مَا هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ مِنَ الإِحْرَامِ!

وَحِينَ يَرَى الحَاجُّ تَدَفُّقَ الجُمُوعِ عَلَى عَرَفَةَ لِتَحْقِيقِ رُكْنِ الحَجِّ الأَعْظَمِ، ثُمَّ يُبْصِرُ امْتِلَاءَ صَعِيدِ عَرَفَةَ بِهِمْ وَقَدِ اسْتَقَرُّوا بِهَا، وَهُمْ يَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ -يَتَذَكَّرُ الجَمْعَ العَظِيمَ، وَالمَوْقِفَ الْكَبِيرَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ- حِينَ (يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ)، فَيَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ عَظِيمٍ يَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ كُلَّ الخَلْقِ؛ مِنْ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَى آخِرِ

رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَحَقٌّ عَلَى مَنْ شَاهَدَ جَمْعَ الحَجِيجِ تَقِفُ فِي عَرَفَةَ أَنْ يَسْتَشْعِرَ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ؛ (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ).

وَعِنْدَمَا يُوَدِّعُ الحُجَّاجُ البَيْتَ الحَرَامَ، وَيَخْرُجُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى دِيَارِهِمْ، يُحِسُّونَ بِرَاحَةٍ عَظِيمَةٍ، وَسَعَادَةٍ كَبِيرَةٍ؛ بِسَبَبِ أَدَائِهِمْ لِلْمَنَاسِكِ، وَتَحَمُّلِ المشَاقِّ وَالزِّحَامِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَيَلْهَجُونَ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، يَشْتَرِكُ فِي ذَلِكَ كُلُّ الحُجَّاجِ تَقْرِيبًا، لَا يَكَادُ أَحَدٌ قَدْ حَجَّ إِلَّا وَيُحِسُّ بِهَذَا الإِحْسَاسِ، وَيَشْعُرُ بِتِلْكَ اللَّذَّةِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِذَا جَاوَزُوا الحِسَابَ، وَاجْتَازُوا الصِّرَاطَ؛ عَلِمُوا أَنَّهُمْ قَدْ فَازُوا فَوْزًا كَبِيرًا، وَحَازُوا ثَوَابًا عَظِيمًا، حِينَهَا فَقَطْ يُحِسُّونَ بِرَاحَةٍ لَنْ تَنْقَطِعَ، وَسَعَادَةٍ لَا تَنْفَدُ، وَقَدْ قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : مَتَى الرَّاحَةُ؟ فَقَالَ: الرَّاحَةُ عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ تَضَعُهَا فِي الجَنَّةِ؛ (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الاعْتِبَارَ فِي الدُّنْيَا، وَالفَوْزَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَحْفَظَ الحُجَّاجَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَأَنْ يَفْضَحَ مِنْ يُرِيدُ انْتِهَاكَ حُرْمَةِ الحَرَمِ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ كَيْدَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ إنه هو الغفور الرحيم

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَا عَلَى الْظَّالِمِيْنَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الْصَّالِحِيْنَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ النَّبِيُّ الْأَمِيْنُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْدِّيِنِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيْعُوْهُ [وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ] {الْبَقَرَةِ:٢٢٣} أَيُّهَا المسْلِمُوْنَ: للحج آثار عظيمة على المجتمع المسلم في عقيدته ووحدته واقتصاده وجميع شئون حياته ومن أبرز آثاره في حياة الأمة الإسلامية:

أولاً: وصل حاضر الأمة بماضيها: من آثار الحج الظاهرة أنه يصل حاضر الأمة الإسلامية بماضيها ويربط الجيل الحاضر بالجيل الأول، وتاريخ البيت العتيق ضارب في أعماق الزمن منذ أن دعا أبونا إبراهيم عليه السلام وأرسل نداءه الخالد على مر الزمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (وأذن في الناس بالحج).

ثانياً: سقوط الشعارات الزائفة: من أثار الحج سقوط الشعارات الزائفة التي تجعل التفاضل بين الناس حسب أجناسهم وألوانهم ومكانتهم في الدنيا. ففي الحج تذوب تلك الفوارق بل تسقط، فتتحقق المساواة بين المسلمين رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين ألسنتهم وتباعد بلادهم، الجميع من آدم وآدم من تراب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

ثالثاً: توحيد كلمة المسلمين: من آثار الحج في حياة أمة الإسلام توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم تحت راية التوحيد شعارهم المعلن هو التلبية – لبيك اللهم لبيك – وما ذاقت الأمة ما ذاقت من ويلات وحروب واستعمار وتخلف إلا بسبب تفرقها وتمزقها، والحج فرصة وأيما فرصة للم الشمل وتوحيد الصف والوقوف بوجه العدو تحقيقاً لأمر الله (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).

رابعاً: تبادل المنافع التجارية والتجارب الاقتصادية: من آثار الحج في حياة الأمة الإسلامية تبادل التجارب والخبرات في المجال الاقتصادي وتنويع المنتوجات حسب العرض والطلب في السوق المالية في ديار الإسلام. ولاشك أن هذا التجمع الكبير فرصة لبحث أوجه النقص لدى بعض البلاد الإسلامية ليتم التكامل مع بعض البلاد الأخرى وهذا من المنافع التي أمرنا الله أن نشهدها في الحج وقد أشار خير الأمة وترجمان القرآن إلى هذا المعنى فقال ليشهدوا منافع لهم قال منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والربح والتجارات

هذا، وصلّوا وسلّموا على نبيّكم مُحَمَّد المصطفى ورسولكم الخليل المجتبى، فقد أمَرَكم بذلك ربُّكم جلّ وعلا فقال عزّ قائلاً عليمًا: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا اللّهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك مُحَمَّد الأمين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وأزواجه أمّهات المؤمنين، وارضَ اللّهمّ عن الخلفاء الأربعة الراشدين اللهم ارض عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين اللهم اعز الإسلام والمسلمين اللهم وفق ولي أمرنا لما تحب وترضى وخذ بناصيته للبر والتقوى اللهم واجزه عنا خير ما جزيت راعيا عن رعيته اللهم ألبسه لباس الصحة والعافية والإيمان يا ذا الجلال والإكرام اللهم احفظ الحجاج والمعتمرين اللهم ردهم إلى أهلهم سالمين غانمين يا رب العلمين

سبحانَ ربَّك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين